ذكرى أم كلثوم

للشاعر التركي إبراهيم صبري

[نشرت الرسالة في عددها (٤٨٠) تعريفاً بالشاعر التركي ابراهيم صبري وترجمة لقصيدة من شعره . وهذه القصيدة التي ترجمها صديقه الأستاذ « محمود محمد شاكر » تعطي صورة جديدة من الشعر التركي بل من الشعر التركي في غربته . وفيها يصف الشاعر ذلك الصوت الشجي السامي الذي يسحر السمع ، ويسبح بالروح في جو ممتد كامتداده ، مرتعش كرهفته ، منتعب كانتحابه : صوت أم كلثوم]

إلى أخي محمود محمد شاكر

انصرفتُ من دعوتك الماضية وقد احتفظت بشعور وإحساس كتب في ذاكرتي هذه الأبيات :

* * *

كان يوماً بديعاً مِلْؤُه السرور ! وا حسرتا لذلك اليوم ! لقد مضى !

ألوان من الطعام لذيذة اتصلت بموسيقى السِّحْر التي فاضت على شفتي أم كلثوم الفاتنة ،

قصيدة وردية من أباريق اللحن انسكبت في أرواحنا .

حين يأخذني سكر الإبداع أجد [illegible]

وتذهب أعصابي في سُبات عميق من فرط ما تملت .

هذا هو الشيخ الذي يضم عظامه قبر بسيط بفناء الجامعة السورية ، والذي كان يمثل دنيا وحده وكانت شخصيته فذة جديرة بالبحث والدرس

إننا في حاجة إلى أن نستلهم الماضي ونستوحي صفحاته ؛ وابن تيمية رجل من رجال الماضي وشخصيته تطل علينا من وراء القرون

كان ابن تيمية دمشقيًّا مائة في المائة ، وكان مصريًّا مائة في المائة ؛ فهو حلقة الوصل بين البلدين في عصر مضى . وإني كلما دققت النظر في تاريخه وعمقت التأمل في أقواله أجد نفسي إزاء رجل أقف أمام ذكراه والاحترام يملأ نفسي

والآن في أرض هذه العاصمة الخالدة وفي فناء جامعتها المباركة أقول : « هنا يرقد رجل » .

أحمد أمين

حينئذ أشعر بعروج خيالي وحده إلى عالم الأرواح

تاركاً على الأرض كل ما هو نقيض لهذا الصوت السماوي .

أراني أصل بخيالي إلى قمر في آفاقه نغم ألحانه من عالم الحور والسحر :

هو ذرة أثيرية أخرى لا أبعاد لها ، تكوِّن هواء ذلك القمر وماءه وأرضه ونوره الشفاف .

إن هذا الصوت ليس للتراب ، إنما حقه أن يسمع في السموات .

في مصر التي تشعرك بالبقاء أدوارها التاريخية المديدة

وفي مصر التي يشبه الأهرام فيها صوت أم كلثوم

لا أقف لأستمع بل أبادر لأنظر وأشاهد .

(ليلى والدهر) في ذلك الصوت كلاهما كومياء مذهَّبة جديرة بالمشاهدة .

في هذا الصوت تتمزق صدور العشاق إرْباً إرباً ،

وكيف لا تتمزق فيه صدور العشاق ، وقد ورث نبيٌّ موسيقار لوعة نايه من هذا الوادي .

وإن حفر البشر الهواء في المستقبل ، فلعلهم يكتشفون في صوتها صوت المزامير .

حين تبدأ تغني ينبعث صوتها كأنه وسوسةٌ ذاتُ ألوان من الحباب المتطفئ على النيل الأخضر الذي يجري أمام الشمس

ثم إذا بك تراه ينقلب إلى أمواج في بحر تندفع كل موجاته فترتطم على قلب ؛

ثم إذا بك تراه ينتصر على البعد المطلق .

تخال رَجْع (نواه) آتياً من وراء الفضاء .

هذا الصوت يغرد كتغريد البلبل في الجنة ،

كأنما تفوح منه رائحة ماء الورد وشجرة العود ؛

كأنه نطفة يجري فيها ماء الحياة ، لو انصبت قطرة منها على أجساد الموتى لشعروا بها .

هذا الصوت يمسُّ خدَّ السمع كمنديل من الحرير في كف معطِّرة ،

كم من ناصية قد اعتمدت على هذه اليد الساحرة

تبكي وتنوح ، غارقة في حنانها ،